حياة واجبة..

نهلة التهامي

هذه أنا..

وسعت الدنيا من حولى أم ضاقت.. خمسة أشهر فصلت ما بين موت القلب والعقل.. فقدت نبض القلب بفراق أمي.. وجاء ولاء أبي بلحاقها.. ولم ينتصف عام من رحيلها ماعاد لي إلا أن أُمطرهم بدعواتي وثقتي بربي يقبلها.

مادت دنياي ولكني مازلت ويالللعجب أحيا.. فلأضع لمسة النهاية فى بناء روحي قرَّرت ترميم نفسي فلأبنى جداري العازل..وأزينه..لم يتبقى الا بضعة رتوش فهل يُعيرني أحدٌ ابتسامة؟ أُزين بها الوجه وأعيده لسابق رؤياه؟

أما عن روحًا فاترة فقد سألت الله سلوى فكانت هواياتى طالما كنت فنية الهوى.. أعشق الألوان في وصف مشهد.. وأعشق الكلمات حين تُنسج من الإبداع حالة.. لرقص الحروف نغمات تُبهرني قادتني لحافة الإدمان.. أدمنت دنيا الحروف وخضتها وفي بحور الأدب غرقت.. حتى واتتني الشجاعة فنثرت حرفي.. علِّي أكون ذكرى في نفوسكم.. أو أرسم على أفواهكم بسمة.

للحزن ألف سبيل وأوجعه بسمة على روحًا تقطر من جراحها ألم.. هذه أنا اليائسة من كثرة تفاؤلها.. الضاحكة رغم الأحزان والمحن.

نهلة التهامى

مروة عبد الهادي

حياة واجبة

ماذا بعد؟ماذا بعد أداء رسالتي وواجبي في الحياة؟!

أسئلة تشغل بالها أكثر من إجابتها، عدَّلت صفاء وضع الوسادة خلف ظهرها لتسبح بذكرياتها بعيدًا، تزوجت منذ أكثر من خمسين عامًا، لا تتذكر أحداث حياتها قبل ذلك كثيرًا، طالبة جامعية عادية تتزوج في عامها الجامعي الثاني لتظل به، في البداية راوضتها تلك الأماني بتحقيق النجاح في كل المجالات، لم يرفض منير مطلقًا استكمال دراستها بعد الزواج كما لم تفكر هي في عكس ذلك!

كانت الظروف هي عائقها لتحقيق حلمها بتحقيق أحلام أخرى، فبعد أن رسبت أول مرة وقررت التنظيم بين دراستها وزوجها جاء النبأ السعيد بأول براعم زواجهم، مرَّت الأيام سريعًا لتجد أنها تزوجت وأنجبت ندى ثم هيثم فمروة ومازالت لم تستكمل عامها الجامعي الثاني، شغلها منزلها وتربية أبنائها عن العالم، اكتفت بهم ورضيت سعيدة بنصيبها من الحياة.

ضجيج الطرقات على الباب أعاد الحياة لمنزلي الساكن، فتحت لأجد جارتي هيام غارقة بدموعها، بعد رشفات من العصير

البارد وتحويل كتفي لبكرة مناديل تمسح بها هيام وجهها بدأت الحديث، هيام هي عروس جديدة متزوجة منذ أقل من عامين، منذ أن تعرَّفت عليها وأنا أعدها كابنتي، علَّمتها الكثير من طرق الطهي وأسراره، تملأ جزء من حياتي لساعات تكسر بها رتابة وحدتي.

ما الجديد الآن يا هيام؟ جاءت إجابتها بطلبها الطلاق من زوجها كصدمة خاصة مع تزايد ألم صدري بعد طرقي عليه لمفاجأتها، جاءتني باكية قبل أن تبلغ أهلها بقرار انفصالها، جاء بذهني عشرات الأسباب إلا ذلك، لقد ملَّت من رتابة حياتها بعد أن نفذ بينهم أسباب الحوار!! فقط الخلافات وتبادل الاتهامات هي حوارهم الوحيد دونهم هو الصمت التام، رغم انشغالها شبه الدائم برضيعها إلا أنها تفتقد روح الحياة.

استنكرت بشدة تهاونها في هدم بيتها وموافقة زوجها على ذلك!! كيف لهم أن يستسلموا بسهولة لمصاعب الحياة بدلًا من أن يعركوها، يالضعف شباب هذا الزمن وتهاونه، ردَّت عليَّ هيام بأن الخرس الزوجي هو آفة العصر، هو أحد الأسباب في فرط عقد التواصل الأسري وانهيارها، دعتني بالمحظوظة فلم تكن على أيامي تلك المشكلة.

ربتُّ على كتفها وعدت لأشركها ببعض من أيامي المحظوظة، سنوات وسنوات بعد زواجي ولم تعد الحياة ببساطتها، ناقش الجميع مشكلة الخرس الزوجي كأحد أهم مشكلات البيت العربي، لست بجاهلة أو ساذجة ولكنني فهمت أسبابه من انعدام التوافق الحياتي بين الزوجين.

من منا لم يتغير بمرور الزمن وكثرة ما قابلنا بالحياة؟! نتغير؛ دون أن نعي أحيانًا، ونتمسك باستكمال حياتنا دون مراعاة التغيرات، مررت ومنير بأول خرس بيننا بعد خمس سنوات فقط من زواجنا، كنا نجلس صامتين لا نجد ما يمكن أن يثير الحديث بيننا، فقط بعض التعليقات عن روتين حياتنا الصاخب؛ هو بعمله وأنا بطفلي فلم نكن رُزقنا بمروة بعد.

لوهلة حينها شعرت بانقضاء حياتي سدى، كنت مازلت شابة أطمح لنهل المزيد من الحياة، لا أعرف فجأة تأزم الحال بنا لدرجة طلبي الطلاق، أضحك الآن على تلك الأيام التي ملأت الدنيا بالدموع والشكوى كحالك الآن يا هيام، فحياتنا صارت مستحيلة نتقابل لمامًا بفعل عمله واضطراره للسفر أيضًا، إذا حالفنا حسن الحظ وجلس معي بالمنزل لا نجد ما نقوله، يبدأ بالملل من كثرة أسئلة ندى حتى تضيق هي فتبدأ بمعاندته متعمدة، يصبح رده الوحيد هو تعنيفها وتركها لي.

لو أخذته مشاعر أبوته وحمل هيثم ليداعبه، ما هي إلا لحظات ويتخلص منه سريعًا لعدم احتماله بكاء الرضيع الدائم! كان طفل كبير عنيد سيء السلوك بتعبير أمي رحمها الله، لم يوافقني أحد على قرار الطلاق، أنا أيضًا بداخلي كرهت فكرة انهزامي بمعركة حياتي، قررت المناضلة من أجل إعادة الاستقرار لمملكتي.

أخذت المبادرة فأصبحت أبحث عن جديد زوجي لأجذبه للحديث عنه، كانت تلك الفكرة جائتني عندما اجتمعت ببعض صديقاتي، كل واحدة منهن تولي أحداث حياتها الأهمية القصوى لحديثها، فعزة تقلب الدنيا على تجهيزات شقتها استعدادًا للزواج، منى همها الوحيد مصاعب دراستها وتلعن قرارها بمواصلة الدراسة بعد أن منَّ الله عليها بالتخرج، تغيب نهى عنا بأحلامها لتتحدث عن خطيبها الذي أعدته حبيب العمر ولم تعرفه إلا من شهر واحد.

ترمقنا مها بسخط لتنهض وتتركنا غاضبة من عدم اهتمامنا بمرضها، كل واحدة تتحدث عن مستجد حياتها كأنه الحدث الأهم في الحياة ودونه لا شيء أخر يهم، لم يعلمن بعد أنها مراحل تستنفذ كل مرحلة منا طاقة قبل أن نزهدها ونتحول عنها لمرحلة وحدث أخر في غمرة إنشغالهم لم يدعوني للحديث عن صغاري ومشاكلهم بعد!

حقًا لقد مررت ببعض المراحل التي أحدثت تأثيرًا بالغًا في اهتمامتي وأخذت من حديثي الكثير، الأن أجد حديث تلك المراحل الحياتية باهت وأملَّ من تكراره، لماذا إذًا أضن على منير بالتغيير وهو أيضًا عركته الحياة بدروبها ومجالاتها؟!

تعلمين أن منير توفاه الله منذ سبع سنوات ولكن طوال فترة زواجنا لم نعاني ثانيًا من الخرس فيما بيننا بعد أن تطور حديثنا مع مُضي العمر، كنت أكيف حديثنا مع نضوجنا وتطورنا كما أتهيأ اللحظة المناسبة لبدء الحوار، لم أعد أحاصره برتابة الأحداث اليومية بل المستجد منها فقط؛ كأولى انطباعات ندى بأول يوم دراسي لها، أشركه بممتع ومستجد الأحداث حتى يستطيع أن يشاركنا إياه.

أصبحت أتصيد جديد أخباره، تطلعاته وخططه بل وعثرات عمله، أواكب تطوره وأُشركه باهتماماتي، عجلة الزمن دوارة ونحن معها، مع مُضي العمر وجدنا ما وجب مشاركته حتى وإن بات الحديث صامتًا، أتعلمين بعد أن أنهى منير عمله والتزم الجلوس بالمنزل كدت أجن، نعم بقدر شوقي السابق ليشاركني الحياة بقدر سخطي عليه عندما فعل لقد كان يتدخل في كل شيء، شعرت أنني مهددة بمملكتي، ملاحظاته الدائمة على كل شيء

أطارت بصوابي، كنا دائمي التشاجر في ذلك الحين، حكم السن يا ابنتي يجعلنا سريعي الاشتعال والمشاجرة لكن ما بيننا من طول عشرة تجعلنا سرعان ما ننسى لِمَا تشاجرنا ونعود لسابق وئامنا حتى تُثيرنا تفصيلة أخرى.

أتعلمين بعد أن خلا المنزل علينا عاودنا الصمت كثيرًا ولكنه صمت أخر من تفاهم مشترك، وإن حرصنا على استمرار حوارنا حتى ولو بدى للأخرين سفه الحديث، كنا نجلس لنتراشق بأرائنا عن نهايات المسلسلات الدرامية أو يجمعنا الحنين لنتذكر ذكريات مشوارنا سويًا، عودي يا ابنتي لشقتك ولا تستسلمين وجدي ما يجمع بينكم، تكيَّفي مع مرور الزمن ولا تظلي مُتعلقة بأوهام ماضية راسخة بعقلك وحده.

غادرتني هيام شاكرة لتُقابل زوجها على بسطة الدرج؛ محتاس بابنه الباكي يُغالب غروره لطرق بابي وسؤال هيام عن مساعدة، فقط الصبر والتفاهم داعمي الزواج الأبدي.

أغلقت بابي على وحدتي مجددًا، تناولت بكرة الصوف لأعيد شغلها بالإبرة، يحب حفيدي سليم ذلك اللون الأخضر لأخصصها له، أعيش كطير كسر جناحيه وأُجبر على مواصلة حياته فاقدًا أهم حقوقه في التحليق حرًا، فأنا مُقيدة بالحياة وحيدة بعد أن نُحِّيتُ من كل مهامي في الحياة عادت لي تساؤلاتي من جديد.

كانت دوامة الحياة سابقًا تُقيِّدني بالعديد من الأعمال والمهام، قلَّما جائني النعاس قبل أن أفكر في خطط ومهام الغد، ما بين إدارة شئون المنزل والاستذكار للأولاد ومتابعة مشاكلهم فالاهتمام بمنير وخططنا لتأمين مستقبل أبنائنا فتزويجهم كانت دوامة حياتي تسحبني لغريق أعماقها حتى ألقتني فجأة على شاطئ خال.

لن أزعم أن وحدتي بدأت بعد وفاة منير ولكن بعده وحشة حياتي تزايدت حتى أطبقت عليَّ، لقد تجاوزت ومنير أزمة الخرس الزوجي ولكننا لم نستطع تجاوز الخرس الأبوي بعد فترة من العمر، بعد أن تجاوز أبنائنا مرحلة المراهقة بنزاعاتها حتى أتت مرحلة الخرس الأبوي!

كنت عانيت بمراهقة ندى بكريتي ومعاكستها لكل ما أقول حتى جاءت مراهقة هيثم فخلفتني عيون لها الجسد من فرط حرصي على متابعته، مراهقة مروة جائت بعد أن خط الشيب رأسي ليحولنا لطرفي نقيض، بالطبع صبَّرني منير بمرور المرحلة وتماثلهم للعقل قريبًا وقد كان.

نضج صغاري وحمدت الله على عدم هدر جهودي بتربيتهم سدى، أفتخر بهم حقًا وأشهد بنجاحهم في إدارة حياتهم الخاصة

لكنهم هجرونا لوادٍ بعيد عنا، تحيا أسرتنا معًا تجمعنا جدران وتفصلنا أفكار، كنت ومنير نقف على شاطئ بعيد يفصلنا عن شاطئ أبنائنا بحر من لاشيء! نعم لم نعد نستطيع التواصل مع أبنائنا فهم غارقون بعالمهم.

نشحذ أحاديثهم وتفاصيلهم ألا يعلمون أي منفى يقودونا إليه؟! كأنما نضب الحديث فلكل عالمه حتى فيما بينهم خاصة مع تطور البُعد الإلكتروني واصلنا واجبنا نحوهم للنهاية لتسحبهم دوامات الحياة بعيدًا عنا كخير جزاء.

ندى أقربهم في بناء جسور الوصل معنا سافرت للخارج مع زوجها لنكتفي بتواصلنا الإلكتروني معها، بينما سعت مروة وزوجها لشق الرحى بحثًا عن سبل العيش أو هجرة للخارج! كان منير ابتاع شقة هيثم بنفس منطقة سكنا وإن بَعَد عنا شوارع محدودة ولكن قبل زواجه قرَّر أن يبيعها ويستبدلها بأخرى بمنطقة جديدة بعيدة.

رُزقنا بالعديد من الأحفاد منهم من لم نلتق به أبدًا ومنهم من نراه مرة أو اثنين سنويًا، عشت ومنير نحلم بتجمع العائلة مجددًا وقد كبرت فروعها واشتدت، عشنا بجزيرتنا نداوي أثار جروح القلب من الهجران، نواسي بعضنا ونلتمس لهم العذر وإن اعتصر القلب حنينًا.

كانت وحدتنا صعبة تجاوزناها بعشرة السنين الطوال، نتشاكل أنا ومنير يوميًا ثم ننسى عما كنا نتحدث أصلًا، كانت خيانة منير بوفاته صادمة تركني وحيدة بعد أن عزَّ وجود الأصحاب والأقارب وتباعد الأبناء، بعده حياتي أصبحت موحشة وحيدة بمنزل أخذ من عمري الخمسين عامًا.

في البداية كانت مُحادثات ندى ومروة الهاتفية وزيارة هيثم الأسبوعية ونسي الوحيد حتى شحوا عليَّ بهم، غلبتهم الحياة مجددًا ليبتعدوا وتقتصر زيارتهم وأحاديثهم على المناسبات الرسمية والأعياد، لماذا يضن أبنائها بحلمها الذهبي! أن تتوسط مجلسهم منهمكة بشغل الأبرة تستمتع بأحاديثهم ولعب أحفادها من حولها، أن تشاركهم حياتهم كما أشركتهم هي بالحياة.

تأبى ظروف حياة فلذات قلبها على استضافتها عند أحدهم كما تأبى كرامتها أن تفرض وجودها على أحد، فكَّرت كثيرًا في حل لوحدتها، تذكرت قريبة شابة لمنير تطلقت وتعيش وحيدة، فكرت في سؤالها مشاركتها الحياة علها تعينها على قسوة الوحدة ولكن لاقى اقتراحها الرفض التام من أبنائها خوفًا على ميراث خفي أو ضياع جنيهات يعدون أنفسهم أولى بها، لم أتزمت برأيي مخافة من غضبهم وإن انفطر قلبي لقسوتهم، وعدوني بالسؤال والاهتمام وعدت لوحدتي من حيث بدأت بعد أسابيع قلة.

مخاوف كثيرة تنسج خيوطها في عقلي ماذا لو باغتني مرض وحيدة؟ لو سقطت سهوًا لكُسِرت ولن يدري بي أحد، تخيَّلت نفسي أفترش الأرض غير قادرة على النهوض أو طلب المساعدة، حشر زوري وأبت الكلمات أن تخرج ابتلعت ريقي واستعذت من الشيطان، ردَّدت تفائلوا بالخير تجدوه، اللهم احسن خاتمتنا، خاتمتنا!! ماذا لو توفاني الله وحيدة؟! أثارت الفكرة وحدها هلعي.

سألت عن بعض من دور المسنين لأجد أفضلهم ممن تلائمني وإمكانياتي، كنت سعيدة بقراري فهو حل يُرضي الجميع، سأعيش مع من يُماثلني عمرًا وخبرة، لنجد معًا سُبل للاشتراك فى الحياة مُجددًا، لن أحمل همًا ولن يحمل أحد همي، لكن رفض أبنائي كان عنيفًا غاضبًا، يخشون نظرة المجتمع لهم كأبناء جحدوا ببر أمهم! لم يتفهموا مخاوفي، فقط أنانيتهم هي ما يرون عجزوا عن مساعدتي ورفضوا مساعدتي لنفسي.

أكثر ما ألمني هو خشيتهم رأي الناس بهم أكثر من فقدانهم لي، كيف قست قلوبهم عليَّ هكذا؟! أبفعل الحياة أم أسأت تربيتهم؟! نظرة هيثم الغاضبة وتذكيري بكِبر عمري صدمني! ماذا أنا فاعلة بعمري؟! هل أقضي على ما تبقى لي من ساعات لأريحهم؟! ما لي بعمر لا أحدده! أبيدي بدأته لأُنهيه؟

ماذا بعد؟

سؤالي الدائم لقد أتممت واجبي تجاه الجميع، منير، والدي، أبنائي، فماذا بعد؟ مازال بي نفس نابض وعقل يشكو وحدته ويأبى حذر معيشته، فككت أخر غرزة بعد أن سرحت عنها بعيدًا، مازلت أجد عذرًا لصغاري من صعوبة حياتهم وإن عجز قلبي عن مسامحتهم، ليتهم يُفرِغون لي قليل من وقتهم فقط هو كل ما أرجوه أدعوا لهم بلين القلب حتى لا أكون أهدرت عمري هدرًا معهم.

طرقات هيام أخرجتني من متاهة أفكاري مجددًا لأحيا معها قليلًا، جلست وبادرتني بسؤالي عن صعوبة وحدتي، كانت تفكر كيف أقض أيامًا وحيدة دون محادثة أحد، نظراتها الحانية حثَّت دموعي مازال بالدنيا خير ورحمة، أعطتني إعلان لإحدى الجمعيات الخيرية الأهلية التي تهدف لدمج حياة المسنين مع الأيتام، كلتا الحالتين بحاجة للحنان والاهتمام كلتاهما بحاجة لمساعدة بعضهم البعض، ما إن رأت هيام إعلان الجمعية حتى فكرت بي لقد عوَّضت هيام عن غياب أمها كما عوَّضتني هي عن هجر أبنائي، يوجد مثلنا الكثير ممن بحاجة للمساعدة أن تساعد

الأخرين هو أكبر دليل على قلبك الحي وأنك مازلت إنسانًا يستحق الحياة.

لست بحاجة لترك منزلي أو تبني أحدهم ليس للاشتراك أهداف ربح مادية فقط لقاءات تجمع كبار السن مع بعضهم ومعهم بعض ممن فقد الحنان والأمان، تبادل للأحاديث والخبرات ليس إلا مشاركة وجدانية ونفسية لتواصل الأجيال هناك صندوق لمساندة البعض في الأزمات وهو أمر اختياري، لا أعلم كيف أصف شعوري بعد أن وجدت لنفسي فائدة مجددًا وهدف لمواصلة باقي حياتي أخذت هيام بحضني أُغرق بدموعي وشاحها الذهبي.

و أهو ده اللي صار!